صورة من الحياة :

قلب أب !

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣ —

... وأراد خالك أن يقذف بغيظه المضطرم فى وجه أبيك فما استطاع ، لأنه تربه فى الدار والغيط ، وزميله فى اللهو واللعب ، وصاحبه فى زمن الشباب والفتوة ، ورفيقه فى أيام الشدة والرخاء ؛ ولأنه رأى فيه صمتاً استشف من ورائه الضيق والندم ، وأحس من خلاله ثورة مكفوفة تجيش أحياناً ثم تتوارى فى حزن وكمد، ولمس فيه أبوة حائرة مضطربة لا تكاد تبين عن رأى ، ولأنه ألفى الدار تموج بأشتات من الناس تعلت نياتهم وسقمت ضمائرهم، فيهم اللؤم والشماتة ، يتربصون بالرجل ـ أبيك ـ الدوائر لينالوا من كرامته ويتندروا برجولته . فجلس بإزاء أبيك صامتاً وإن الثورة الجامحة لتوشك أن تجتاحه ، وإن الحزن المرير ليكاد يعصف به ، وإن الأسى العارم ليعصره عصرا . . .

واعتركت فى نفس خالك عوامل الغضب والرحمة : الغضب مما كان من أبيك ، والرحمة به لأن ألسنة وضيعة لاكت رجولته التى لم تخدش يوما ، ثم تراءت له خالتك وهى تصرخ صراخاً فيه الفزع والرعب ، صراخاً يتحدث عن أسى الأم فقدت بنيها الثلاثة دفعة واحدة ... تراءت له وهى تفزعه بالنواح وتستحثه بالأسى ، فهب من مكانه ثائرا يريد أن يقذف بغيظه المضطرم فى وجه أبيك ، ولكن...

ولكنه هب فجأة ليرى أمامه ناظر العزبة ، لقد دخل الرجل على حين فجأة من الناس، وعلى وجهه سمات الشجن ، وفى مشيته علامة الاضطراب ، وراح يتحدث بكلمات حزينة متقطعة لا تكاد تفصح عن معنى . وقص الرجل على الملأ قصة الصبية الثلاثة الذين طاروا من دار أبيهم يقطعون الطريق الوعر الطويل يضنيهم الجهد وترهقهم الهاجرة ويقتلهم الضنا

وماتت الكلمات على الشفاه ، ثم ما لبث الجمع أن انفض فى صمت ، وخلا المكان إلا من رجلين — أبيك وخالك — يتحدثان حديث الأخوة والصداقة ، فرضى خالك

ثم صفرت الدار إلا من رجل واحد يلفه الظلام والسكون ، رجل ينبض قلبه بالحنان وتخفق روحه بالرحمة وتضطرب نفسه بالندم ، ثم شملته اللوعة الفوارة فطفرت من عينيه عبرات تشهد بأن قلب الأب لا ينطوى — أبداً — إلا على الرقة والمحبة ، ولا ينضم إلا على العطف والشفقة . وأرقته الحادثة فما هدأ إلى مضجعه حتى مطلع الفجر

وهبت نسمات الفجر الندية توقظ أباك من غمرة الفكر وتزعجه عن توازعه الأرضية ، فانطلق صوب المسجد ليلقى أتراجه فى سبحات النور الإلهى التى تغمر القلب حين ينزع عنه ترابية الأرض ليعيش حيناً فى دفقات النور السماوى . وبين يدى المحراب خلص أبوك من ضنا نفسه وخلع ثوب الأسى عن نفسه ، غير أن عبرات حرى ما زالت تترقرق فى محجريه

على قدميه ، تمثله هذه الفئة من الأرستقراطيين والنبلاء ، وهى فئة متميزة كل التميز ظاهرة فى المجتمع الانجليزى كل الظهور ، تشير إليها على الأقل مدرسة هارو وكلية إيتون ، وهما المعهدان العلميان اللذان لا يطرق أبوابهما غير أبناء الممتازين من الطبقة الاجتماعية ، ونعنى بها طبقه الأمراء واللوردات!

نظام طبقات فى انجلترا واضح كل الوضوح ، وحرية رأى مكفولة كل الكفالة ، وحزب شيوعى وآخر فاشستى ، ومع ذلك فالشيوعية هناك بائرة لا تجد أذنا تسمع ، والفاشستية حائرة لا تجد يدا تصفق .. لماذا ؟ لأن العدالة الاجتماعية هناك قد هيأت العلم للجاهل ، والعمل للعاطل ، والدواء للمريض ، وللحياة الكريمة التى توفر الاستقرار للموظف والعامل والفلاح .. وإذا اجتمعت كل هذه القيم المثالية لمجتمع من المجتمعات ، فلا حاجة به إلى الخوف الذى يدفع إلى سن القوانين وإصدار التشريعات !

انجلترا هى المثل .. وليست ايطاليا التى أفاق نظامها توليانى ، أو فرنسا التى هز كيانها توريز ! !

أ . م

وخرج أبوك من المسجد وقد أفعم قلبه بالبغضاء والكراهية للفتاة التي أوحت إليه أن يرفع الطعام الشهي من بين يدي الصبية الصغار أحوج ما يكونون إليه، ليعيشوا حيناً في العناء والجهد والجوع.

الآن خسرت الزوجة الحمقاء — في لمحة واحدة — السعادة التي كانت تطمع أن تستخلصها لنفسها يوم أن تنزعك عن الدار التي ضمتك في حنان ونشأتك في عطف ... خسرت السعادة لأنها فقدت قلب الزوج وعطف الرجل وهدوء النفس، فقضت عمرها في ضيق ونكد لأن نزوات شيطانية سيطرت عليها فدفعتها فارتكبت حماقة هوجاء افتضح أمرها فاقضت مضجعها وهدمت حياتها وحطمت أملها

يا لعدل السماء! إن الحفرة التي حفرتها الفتاة لتقذف فيها بثلاثة من الصبية الأبرياء قد فتحت فوهتها في شره وغلظة لتبتلعها هي، ولتلبث فيها زهرة العمر تذوق وبال الوحدة والانكسار والألم جميعاً

وفي بكرة الصباح هم أعمامك — وهم كثر — صوب للعزبة يريدون أن يختلوا الصبية عن العقل، ويخدعوهم عن المنطق، ويسيطروا عليهم بكلمات براقة جوفاء. ودخلوا عليك وأنت تتناول طعام الصباح — بين أخويك — في لذة وشهية، في جو من المرح والمحبة، وقد طمت النشوة على أتراح الأمس ... دخلوا فابتسموا وابتسمت. وأذهل الرجال أن يسمعوا في صوت هذا الصبي رنات الجد والحزم، وأن يجدوا في حركاته معاني الرجولة الآمرة المتسيطرة. وأخذ عمك يزوق كلاماً فيه الرقة والطلاوة يريد أن يختلك عن العقل، ويخدعك عن المنطق، ويسيطر عليك بكلمات براقة جوفاء فقلت له «ألست الآن رب هذه الدار وصاحب هذا الغيط وسيد هذا القوم؟»

قال عمك الأكبر «بلى، يا بني، ومن قبل!»

قلت «أليست دار أبي تشرق بالخير المتدفق من غلات هذه الأطيان؟»

قال «بلى، يا بني!»

قلت «والنعمة التي ترفل فيها زوج أبي، والرخاء الذي ينعم به أبي؛ أليسا من فضل هذا الحقل؟»

قال «بلى ورب!»

قلت «والطعام الذي رفع من بين يدي في قسوة وجفاء، أليس من جنى هذه الأرض؟ لقد رفعت يدي — مرغماً — عن طعام تشتهيه نفسي في غير ذنب جنيته، على حين أنه من بعض مالي أنا لقد حرمت الطعام والعطف معاً فنزعت إلى هنا لأجد المال والطعام والحرية جميعاً. فلا على إن أنا عملت!»

قال عمك الأكبر «ولكنك ابن أبيك، يا بني وهو أبوك!»

فقلت أنت «ولكنه أراد أن يقتلنا جميعاً دفعة واحدة على حين لم نقترف جريرة، ولم نحمل له في قلوبنا غير المحبة والاحترام»

فقال في رقة وهو يحاول أن يحبس عبرة تراود نفسها أن تطفر من بين محجريه «لقد جئنا لنعتذر عن غلطة أبيك حين ندم على ما كان منه. وأشد ما يؤلمه أن تظلوا هنا في منأى عنه وأنتم نور عينيه وسعادة قلبه ولذته العظمى في الحياة وأمله الرفاف حين يهي الجلد ويهن العزم ويذوي العود وتسري الشيخوخة الباردة في دمه. فهل كنت تطمع أن يطير هو إليكم ليعتذر؟»

وسمعت — يا صاحبي — كلمات عمك وهي تفيض حنانا ورحمة فتهاوت قوتك وانهارت عزيمتك، وأطرقت تكرر كلمات عمك في همس والعبرات تنهمر من عينيك سيلا ينبيء بأنك ما زلت صبياً لم يدنسك الدغل ولا شوهك الغيظ ولا لوثتك المادة، ثم نظرت إلى الجمع من خلال عبراتك الطاهرة وقلت «لا ريب، فهو أبي ... ولا أعصى له أمراً، فر بما يريد»

وانطوت ساعة فإذا أنتم بين يدي أبيكم يضمكم في شوق، ويقبلكم في شغف، ويحدثكم حديث قلبه وقد اختلطت عبرة بعبرة وخفق قلب لقلب وتعانقت زفرة وزفرة، ثم اندفع الركب يسير

وعشتم — يا صاحبي — في الدار أحزاباً ثلاثة: الأب، وهو رجل دين وإيمان، في قلبه العطف وفي روحه الحنان؛ تثأرت الذكرى في جوانحه — منذ يوم الحادثة السوداء — قوية عنيفة، تذكره بالزوجة الأولى — أمك — التي ذاق إلى جانبها لذة العيش ومتعة الثراء وحلاوة الاخلاص؛ والتي يرى صورتها مرسومة — دائماً — على وجوهكم فيرى الزلة التي ارتكب على حين غفلة منه تتثبت به وتخز ضميره، فلا يجد شفاء لنفسه إلا في أن يضمكم إلى